فنّ الواقعيّة الاشتراكية

هل نستطيع ان نعطي « الواقعية الاشتراكية * » قيمة نظرية فلسفية ؟ كلا ، بأيّ حال . وكذلك لا نستطيع ان نطبق عليها عبارة « ايديولوجية » . ومع ذلك ، فهل ينبغي التوقف عند « هذا المنعطف التاريخي » ؟ اجل . ذلك ان الواقعية الاشتراكية انما تنتشر بسبب التدابير البوليسية اكثر من انتشارها بدافع الاقتناع .

إن الواقعية الاشتراكية ليست إلا «طبيعيّة» فوتوغرافية» و « ايديولوجية » تهدف ، اذ تفصّل الاشياء ، الى غاية واحدة هي ان « تثبّت وتنشر بالصور اوامر المكتب السياسي » . فينبغي الا تتجاوز موضوعات الحاضر : فان الغد هو خطر دائماً على العهد، ما دام يمتّ الى ميدان التخيل ، فلا يمكن للمستقبل ان ينبت إلا في رؤوس اعضاء المكتب السياسي . ولذلك قام تأييد العهد الكلاسيكي في الفنّ ، واعتبرت هذه الرجعة « تقدماً » واعتبر كل سعي الى خلق اشكال جديدة « انحطاطاً محتقراً » .

والحق ان شعار « ينبغي للفن ان يكون في متناول الجموع » لا يعني شيئاً محدداً . إن الجموع تتألف من افراد ، ولكل فرد طريقته الخاصة في الفهم . فمن الذي يستطيع ان يحدد مستوى الفهم لدى الجموع ؟ ان القول بان الفن « الذي ليس هو في متناول الجميع » يجب ان يُحذف ويلغى ، قول سخيف حقاً . ان الرياضيات المحضة ليست في متناول الجموع ، ومع ذلك فليس ثمة من بطالب بان توضع على قائمة الحرم بصفتها خطراً على الجمهور !

وما هو مصدر الفكرة القائلة بان الفهم التجريدي ممتنع على الجموع ؟ ان تطور البشرية يثبت العكس : ان الفن التجريدي هو اصل الفن والجمالية الشعبيين واساسهما . فتزيين الاقمشة والالبسة والاوائل على اختلافها والاسلحة والآلات الموسيقية الشعبية والمساكن البدائية ووشم المتوحشين والموزاييك الاسلامي ، كل ذلك الذي وُلد منذ زمن بعيد

« نصيحة باعادة النظر » لدودنيك

يبقى حتى ايامنا خير تعبير عن اصدق النزعات الجمالية البدائية . وهذه الاشكال الفنية المسماة باشكال التزيين ليست منفية من البلاد « الاشتراكية » . فالمصانع السوفياتية تنتج قمصاناً وتنانير وسجاداً وورقاً مطلياً تحمل كلها رسوماً تجريدية وحتى الزهور – وهي اشكال تصويرية – تظل فيها منمنمة مهندسة موجزة ، فهي اذن ضد الواقعية . فلماذا ينبغي اعتبار الاشكال التجريدية نفسها ، اذا ما رُسمت على اللوحات ، ممتنعة على الجموع ؟ وهل من الضروري ان نذكر هنا بان الفن « التصويري » الكبير هو ، عبر العصور ، الدليل المقنع على هذا الصراع الابدي بين الفنّان والتقليد ؟ ان السيريالية الميثولوجية (العقبان وابو الهول والافراس ذوات الجناحين والعمالقة ذوو العين الواحدة والكائنات اللواتي نصفها الاعلى انسان والاسفل حصان ...) وخيالات بوش Bosch وبروغل Brughel وغرينوالد Grunewald وتشويهات غريكو Greco ورفع الجسم الانساني الى حد المثال لدى القدماء او عند امثال رافائيل ، كل شيء حتى ثورة بيكاسو والمتأخرين بعده ، يؤيد رغبة الفنان في ان يبتعد عن الواقع وان يتجاوزه . إن ليونار دوفنشي ، اذ صوّر « الجوكندا » لم يرد قط ان «ينقل» الطبيعة ، بل اراد ان « ينافسها » وان يخلق كائناً حياً خلقاً

* راجع العدده ١ من مجلة « أدلة » Preuves المقال بقلم ج. انتكوف.

٧٩

فوروشيلوف بريشة غيراسيموف

جديداً . لقد شعر الفن ، حين ظهرت الصورة ، انه تحرّر اخيراً من مهماته كحامل مستندات . ولا اتردد في ان اقول إننا نشهد اليوم نهضة جديدة للفن في العالم كله – باستثناء الاتحاد السوفياتي حيث يبدو الفن رجعياً ومنحطاً .

إن ميزات الفن وفائدته ودوافعه الثقافية ، وحتى سبب وجوده بالذات ، كل ذلك يكمن في اكتشافاته ، في قدرته التخيلية ، في تجسيداته لما لا يُرى . اما التقليدي والطريقة الفوتوغرافية فهما ينتهكان طبيعة الفن ويصمانه بالعجز . إن الواقعية الاشتراكية هي اختراع سوفياتي لا يتكشف إلا عن جهل اوتوقراطي الكرملين . والشواهد التي تأتي من الاتحاد السوفياتي تدل على ان رسم جماعة من ثلاثة أشخاص يتطلب تعاون خمسة او ستة فنانين (والافضل ان نقول هواة فن) في حين ان «رودان» وحده قد رسم رسماً رائعاً « بورجوازيي كاليه الستة » وأن « فيرونيز » رسم زهاء ثمانين شخصاً في لوحة « اعراس كانا » . إن الواقعية الاشتراكية تتحول في الاتحاد السوفياتي الى طريقة جماعية ، بما يؤكد اكثر فأكثر خنق شخصية الفنان واستبدال الصنعة بالفن . فحتى وقت قريب كان صنع تمثال لستالين ، صنع نصفه الاعلى مثّال والنصف الاسفل مثّال آخر ، امراً مألوفاً في الاتحاد السوفياتي .

ومن أجل هذا ، سرعان ما تمّحي من الذاكرة هذه الآثار اللاشخصية ، بالرغم من حصولها على جائزة ستالين ، شأنها في ذلك شأن أية واقعية فوتوغرافية في كل مكان . ذلك ان الواقعية الاشتراكية والواقعية الرأسمالية تمثلان وجهي المدالية نفسها . وعلى العكس ، فان آثار « غالو » و « لويس لونان » و « غويا » و « دومييه » ، وكذلك آثار « رودان » و « بونار » و « فان غوغ » و « بيكاسو » تحدث باشكال تعبيرها الشخصي البحت صدمةً لا تُنسى .

ولنستشهد هنا ببعض الوثائق ، فأمامي الآن عدة مجلدات مطبوعة طبعاً انيقاً ومخصصة لوقائع جلسات اكاديمية الفنون الجميلة للاتحاد السوفياتي ، وهذه بعض موادها :

مما لا غنى عنه ان يكنّ الفنانون السوفيات حقداً لاهباً على اية اشارات عطف تجاه الغرب « الفاسد » . وكتأكيد لفساد الغرب ، يكفي رؤية لوحات « سوتين » Soutine الذي لا يرسم إلا لحماً نتناً . وإن الخائن « شاغال » Chagall يرسم الآن لسخفاء بلهاء ، بدليل ان الرجال على لوحاته لهم رؤوس طيور ! اما « مانيه » و « سيزان » و « ماتيس » و « فان غوغ » فهم يرسمون جثثاً ، ذلك انه لا تُرى الا لطخات من الالوان في مكان العيون ؛ وهذه العيون لا تعبر عن اية فكرة ، فهي اذن لا تعبّر عن اية ايديولوجية . اما الانطباعية فهي مدرسة « رجعية تماماً » ، ذلك ان الانطباعيين لا يُتمّون لوحاتهم قط ...

ومن النصائح التي تصدرها الدولة السوفياتية للفنانين ما يلي :

– يقول الرفيق ا . م . غيراسيموف Guerassimov رئيس أكاديمية الفنون الجميلة ، حامل جائزة ستالين ، و « فنان الشعب » في الاتحاد السوفياتي : « ان الثورة قد حررت المرأة عندنا من كل عبودية ، ومن أجل هذا لا بد من ان يُدرس جسم المرأة بما يدرس به جسم الرجل من اهتمام . إذهبوا فتفرجوا على معارضنا ، وقولوا لي بكل صراحة اذا كانت

٨٠

حياتنا السعيدة في وطننا الاشتراكي السعيد ممثلة بكل جمالها في هذه المعارض ؟ كلا ، إنها ممثلة بلا جمال ولا نضارة . فأين هي حماماتنا ؟ واين هي بلاجاتنا ورياضاتنا وابطالنا ذوو الارقام القياسية وحاملو الاثقال العاليون ؟»

— إن الفنان في الاتحاد السوفياتي لم يُجعل للتسلية ، هذه التسلية التي من أجلها يشتري رأسماليو اوروبا واميركا اي شيء ، من لوحات الانطباعيين الى لوحات بيكاسو... «ومن حسن حظ الاتحاد السوفياتي ان صالات العرض خالية مما ليس هو واقعية اشتراكية ».

اما التدابير الناتجة عن هذه « النصائح » فتتلخص بما يلي : « إن اساتذة الفن الذين ليست معتقداتهم واضحة تماماً هم في كل مكان مضطهدون . وفي مدارس الفن كانت تلقى على الطلاب محاضرات عن « صورة ستالين في الرسم والفنون التصويرية » و « عن صورة ستالين في النحت » وعن « اعمال الفنانين الشباب عن صورة ستالين . » . اما الآثار الفنية المعاكسة للواقعية الاشتراكية ، فتسحب كلها من المكتبات العامة . وإن برنامج جميع الوان النشاط والانتاج الفني في الاتحاد السوفياتي وفي كل البلاد التقدمية « قد اقرته وزارة المعارف » ولكن لا يسمح للفنانين السوفيات ان يُعبروا عن آرائهم حول قرارات الوزارة ولجنة الشؤون الفنية .

وبالرغم من هذه التصريحات ، لا يتورعون في الاتحاد السوفياتي عن القول بانه ليس ثمة بلدٌ في العالم يعطى فيه الفنان كما يعطى هناك ، حرية القول والعمل ، ومن أجل ذلك لا بد للفنانين من ان يسوقوا الى معلمهم الاكبر ستالين جميع الوان الشكر والاحترام ...

وانا لن انسى العبارة التي قالها لي لينين يوماً : « ليس الفن إلا من المخلفات الوراثية ، ليس إلا « عصعصاً » فكرياً مكتوبٌ عليه الزوال بسبب عدم فائدته الكلي » وهذه النبوءة تتحقق تماماً في الاتحاد السوفياتي ، وليست واقعيته الاشتراكية الا مرحلة اخيرة في هذه الطريق . وسوف يكون موت الفن الحر الخلاق موتاً للثقافة والحضارة البشرية . فان الذين « اخترعوا » الطائرات ليسوا هم تكنيكيين ، وانما هو ذلك الشاعر المجهول الذي « تصوّر » الملائكة في الماضي .

ج. اننكوف

« تابلوهات » حيّة

من « بؤساء » هيجو الخالدة

★ لباريس طفل ، وللغابة طائر . اما الطائر فيدعى الدوري ، وأما الطفل فيدعى المتشرد

★ زاوج ما بين هاتين الفكرتين ، التي تنطوي احداهما على جميع حرارة الفرن ، والاخرى على جميع ضياء الفجر . إقدح هاتين الشرارتين معاً : باريس والطفولة ، وعندئذ يثب منهما كائن صغير ، كائن يجدر بـ « بلوتوس » أن يدعوه : الجهيض .

★ هذا الكائن الصغير مفعم بالبهجة . إنه لا يأكل الطعام كل يوم ، ومع ذلك فهو يمضي الى المسرح كل ليلة ، اذا رأى ذلك مناسباً . إنه مخلوق لا قميص على ظهره ، ولا حذاء في رجله ، ولا سقف فوق رأسه . إنه مثل ذباب السماء لا يملك شيئاً من هذه جميعاً . أما سنه فتتراوح ما بين السابعة والثالثة عشرة ؛ وهو يحيا مع العصابة التي ينتمي اليها ، ويضرب في الشوارع ، وينام في الهواء الطلق ، ويرتدي سروالاً عتيقاً من سراويل أبيه ينتهي الى عقبين ، وقبعة عتيقة من قبعات أب آخر تهبط الى أبعد من أذنيه ، وحالة بنطلون مفردة ذات حاشية صفراء. إنه يعدو ، ويتتبّع الأثر ، ويقتل الوقت ، ويسوّد الفليون بالاستعمال ، ويقسم مثل رجل من اهل الجحيم ، ويختلف الى الحانات ، ويعرف اللصوص ، ويخاطب الفتيات بضمير المفرد ، ويهذر بلغة السوقة ويغني اغاني داعرة ، وليس في فؤاده شيء رديء على الاطلاق . ذلك بأن في نفسه جوهرة ، هي البراءة . والجواهر لا تنحل في الوحل. وما دام المرء طفلاً فأن ارادة الله تقضي بأن يكون بريئاً .

★ ولو قد سألنا هذه المدينة الهائلة : من ذلك المخلوق ؟ اذن لاجابت : إنه ولدي الصغير .

★ إن « متشرد » باريس هو قزم العملاقة

★ ولن نبالغ . فعند ملاك الساقية هذا قميص في بعض الاحيان ؛ ولكنه في هذه الحالة قميص مفرد ليس غير . وعنده حذاء في بعض الاحيان ؛ ولكنه في هذه الحالة حذاء من غير نعل . وإن له في بعض الاحيان مأوى ، وهو يحبه ، لانه يجد فيه أمه ؛ ولكنه يفضل الشارع ، لانه يجد هناك حريته .

هذه صفحة من صفحات الجزء الثامن من الترجمة الصحيحة الكاملة « للبؤساء » بقلم الاستاذ منير البعلبكي ، صفحة تكاد تقع على مثلها في صفحات الجزء المئة والاربعين كلها ...

صدر حديثاً **دار العلم للملايين**